دور الجامعة في أوروبا الجديدة تشكيل الجامعة في أوروبا الدينية والعلمانية

ديفيد فورد *

المقدمة: تحديان عظيمان:

من أهم التحديات التي تواجه عالمنا في القرن الواحد والعشرين هي كيف يمكن لكل من الدين والجامعات الإسهام في تشكيل المجتمع، وسوف تؤثر وسائل مواجهة هذه التحديات على المليارات من البشر.

نحن نعيش في عالم ذي قوى علمانية ودينية متعددة مع وجود مناطق عديدة تتسم بالتوترات والصراعات. وقد شهد أواخر القرن العشرين تحول الدين ليصبح شيئًا بارزًا في الوسائل الحديثة على الصعيد العام ولطالما كان ممزوجا بقوًى ومصالح أخرى، وهنا في البوسنة لديكم تجربة مريرة من المآسي التي نتجت عن ذلك المزج. لقد توسع التعليم الجامعي بسرعة كبيرة في القرن العشرين ومازال مستمرًا في التوسع. في عالم تكون فيه المعلومات والمعرفة والتعلم شيئًا أساسيًا للاقتصاد بالإضافة لمجالات الحياة الأخرى؛ تصبح المجتمعات معتمدة بصورة أكبر على الجامعات والمعاهد ذات الصلة لقدرتهم على التدريس والبحث والمعرفة، وفي معظم البلدان حاليا استطاعت نسب متزايدة من عدد السكان الوصول للجامعات، كما أن الأعداد المتزايدة من الأدوار الرئيسة تتطلب مستوًى من التعليم الجامعي.

ماذا عن أوروبا في هذه الصورة العالمية؟ قد تكون الجامعة أهم إسهام مؤسسي تاريخي لأوروبا في العالم في القرن الواحد والعشرين، وتعد الجامعة الأوروبية في العصور الوسطى السلف الرئيس لجامعات اليوم، وجدير بالملاحظة أن رموزها التراثية مازالت فعالة حتى اليوم؛ فمازال هناك قيم أكاديمية أساسية مشابهة مثل أهمية الاستقصاء العقلي للعالم؛ والحوار العام الدقيق الذي ينشد المعرفة المثبتة، وقوانين البرهان، واحترام حرية الفرد وكرامته والحاجة للنقد الذاتي المستمر بغرض تحسين معرفتنا وإدراكنا، وإدراك أن السعي للمعرفة عامل عام جيد لا يمكن اختزاله في أية مصلحة اقتصادية، كما أن هناك مصادر جوهرية مشابهة مثيرة للقلق فالتاريخ الرئيس لجامعات أوروبا يسجل منذ البداية وجود مصادر للتوتر بين ثلاث غايات أساسية: الأولى هي السعي للمعرفة من أجل المعرفة؛ لأنه من الجيد أن تستفسر عن الحقيقة وتكتشفها وتتعلمها وتفهمها وتعرفها وتختبرها من خلال عدة فروع من المعرفة. ثانيًا: التشكيل التربوي للطلاب، مع الاهتمام بكل من القيم الفكرية والتشكيل الأخلاقي اللازمين ليتناول موضوع في قوة المعرفة والعلم. وثالثًا: إفادة المجتمع(1)، ولطالما كانت محاولة الموازنة بين الثلاث غايات

صعبة؛ ولكن إذا تم تجاهل واحد منها فسوف تعاني الجامعة بشدة.

أما فيما يتعلق بالدين فلقد أصبحت أوروبا في القرون الأخيرة واحدة من الأماكن الرئيسة التي تم فيها حل المشاكل الدينية على الصعيد العام، أجبرت الحروب الدينية التي تبعت حركة الإصلاح الديني كل شعب على إيجاد وسائل لضمان عدم تدمير مجتمعه بسبب هذا الصراع الديني, ولقد استنتجوا حلولا مختلفة (أنظروا كيف عالجت البلقان هذه المسألة بصورة مختلفة مقارنة بفرنسا وبريطانيا وهولندا وألمانيا والسويد وبولندا وسويسرا) تستحق هذه الحلول أن تدرس من جديد؛ لنأخذ عنها الحكمة التي حصلوا عليها بشق الأنفس؛ ولكن المشكلة اليوم تتلخص في أن هذه الحلول والتسويات المتنوعة- التي جعلت البشر من ديانات مختلفة، ومن ليست لديهم ديانة يستطيعون التعايش بسلام معا- لم تعد ملائمة الآن. لقد تغيرت الخريطة الدينية لأوروبا إلى حد ما بسبب الزيادة الكبيرة في أعداد المسلمين بها؛ ولكن أيضا بسبب عوامل أخرى مثل تدفق المسيحيين(2) على نطاق واسع بجانب وجود حركات المسيحية الجديدة والحركات العلمانية. وهكذا فإن أوروبا تعيد النظر في تسوياتها وهناك جدل مكثف حول ماهية الحلول التي يمكن أن تلائم القرن الواحد والعشرين.

وأنا أرغب في تقديم اقتراحين:

أولا: تحتاج أوروبا إلى إيجاد مخرج بين التطرف الديني والعلماني الذي يجري الترويج له في الوقت الحاضر، وذلك يدعو إلى تحالف بين هؤلاء الأفراد العلمانيين والمتدينين الذي يجمعهم مجتمع متعدد يمكن أن يكون علمانيا ودينيا بشيء من التعقيد والحكمة.

ثانيا: إن جامعاتنا- التي تعد حاليًا علمانية غالبًا في مجالات تتجاهل أو تستبعد الديانات- تلعب دورًا حيويًا غير معترف به إلى حد كبير في ازدهار أوروبا الدينية والعلمانية؛ إنها تحتاج إلى كلا الطرفين لتشكيل مجتمعاتها من خلال استخدام وسائل حديثة لتصبح مجتمعات دينية وعلمانية معًا، وسوف يتطلب ذلك عمل حوار مُجْدٍ حول إعادة التفكير في العديد من جوانب الجامعات، والتأكد من أن الأسئلة التي تطرحها الديانات وما بين الديانات وحول الديانات تؤخذ بجدية عبر كل فروع المعرفة الأكاديمية، بجانب أن تكون محور اهتمام الأقسام المتخصصة بتدريس العلوم الدينية واللاهوتية، وزيادة إدراج المعارف الدينية في المجتمعات، واتخاذ مسؤولية أكبر تجاه التعليم والفهم العام، وعمل مخطط لمصادر التمويل العلمانية والدينية لتحقيق كل ما سبق.

إذا اتبعت أوروبا هذا المنهاج فيمكنها أن تقود العالم في مواجهة إبداعية لهذين التحديين العظيمين؛ فكيف يمكن للدين بجانب الجامعات الإسهام بحكمة ومسؤولية في تشكيل وازدهار أوروبا العلمانية والدينية في هذا القرن، وأوروبا تمتلك العديد من المميزات في محاولتها لتكون الأولى لمواجهة هذه التحديات، ويمكن لباقي العالم الاستفادة بصورة كبيرة من النماذج الجيدة التي يمكنها تحقيقها.

التحالف الحيوي بين الدراما العلمانية والدينية:

في البداية سوف أقوم باختصار باستعراض اقتراحي الشامل للاتجاه الذي يجب أن تسلكه أوروبا في سعيها لعمل تسويات جديدة بشأن الدين على الصعيد العام، أنا لا أتوقع بأي شكل من الأشكال أن تتماثل التسويات عبر أوروبا كاملة، ولكن على العكس يختلف كل موقف ويتطلب مناهج مصممة خصيصًا له، وهذا التنوع يمكن أن يقدم مساعدة كبيرة لباقي العالم ولكن من المهم رؤية ما إذا كان الأوروبيون يوافقون على هذا الاتجاه العام.

إن الاتجاه المقترح يمكن اختصاره بسهولة؛ ففي وضع حيث يوجد فيه مواقف للعلمانيين كأحد المتطرفين الذين يروجون للتشكك الصارم والتحكم في الديانات واستبعاد الدين من المحيط العام بأكبر قدر ممكن، ومواقف للمتطرفين الآخرين المتدينين الذين يروجون لسيطرة ديانة واحدة (عادة ما تكون المسيحية أو الإسلام). إنه لأمر مُلحٌّ أن يجتمع معتنقو التيار الديني والتيار العلماني معا للترويج لحلول تعددية تخدم ازدهار كل المجتمعات. ويتشابه كلا- المتطرفين في قدرتهم على تصور لإطار عملي كامل تمشيًا مع موقفهم الشخصي، ويمكنهم حينذاك تشكيل تحالفات بينهم في بعض الأحيان (مثل: الدين والقومية). لقد اضطرت أوروبا لتعلم دروس مريرة من خلال محاولات فرض الحلول إذا ما كانت دينية (كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية)، أو علمانية (فاشية وشيوعية وأنواع مختلفة من القومية والجمهوريات) أو مزيج من كليهما، ويتمثل الدرس الإيجابي في أن منهج الشمولية (ما إذا كان دينيا أو علمانيا أو كليهما) يحتاج إلى أن يفسح المجال للمفاوضات التي تهدف إلى الحلول السلمية وغير القهرية.

ربما يكون ذلك ما يطلق عليه "الدراما الدينية والعلمانية" لأوروبا في القرن الواحد والعشرين(3)، وهي عبارة عن دراما لا- يتحكم في حبكتها أي مجموعة خاصة؛ ولكن يوجد فيها مشاركات ومفاوضات وتعاون حقيقي بين المجموعات بهدف إيجاد حلول جيدة للمصلحة العامة، ويتطلب ذلك بعض الإرشادات والقواعد –أنماط من التدريب الجيد بجانب أحكام قانونية ودستورية رسمية- وذلك لكي يسمح لهذه الدراما بأن تحدث بالفعل؛ ولكن معظم هذه الحلول قد تحدث في عوالم متنوعة من المشاركات، ليس فقط سياسًيا(4) ولكن إعلاميًا وقانونيًا وتربويًا وصحيًا وعمليًا، بجانب كل مجال آخر من مجالات الحياة والعمل. سيكون هناك بالطبع أوضاع محدودةيمكن للأفراد والمجموعات فيها بالانسحاب من الدراما وأدوارها الصغيرة يكونوا في حاجة لكبت جماحهم أو حتى إكراههم، هؤلاء الذين يختارون العنف سعيًا وراء تحقيق أهدافهم هم أفضل مثال على ذلك؛ ولكن لابد ألا يسمح الخوف من تلك العناصر بتعطيل الدراما لمصلحة دولة ذات سيطرة نظامية، وتبرير ذلك من خلال نظرة عامة شاملة ودعمه بواسطة التقنيات الحديثة للمراقبة والإكراه.

أنا أقترح أن ازدهار المجتمعات في القرن الحاضر سوف يعتمد بصورة كبيرة على مدى جودة العمل ضمن منظور" الدراما الدينية والعلمانية" ، وكيف سيكون ذلك قابلا

للحوار والتعاون عبر حدود التقاليد والالتزامات؟ هل سيوجد القدر الكافي من العلمانيين لينظروا لقيمهم وممارساتهم على أنها لا تهدف إلى رفض أو القضاء على الديانات؛ ولكنها تهتم بإيجاد طرق للتعاون مع المتدينين من الأفراد والمجموعات من أجل المصلحة العامة؟ هل سيوجد عدد كاف من المتدينين يمكنهم بالمثل الالتزام بخوض الحوار والتفاوض والتعاون؟ إن رؤيتي تشتمل على مجتمع مركب ديني وعلماني(5)، مع وجود كثافة صحية من المشاركة الدرامية في الحياة العامة وكل مجالات الحياة الطبيعية والعمل. هناك أشياء عظيمة في خطر بسبب ذلك؛ ولكن ازدهار المجتمعات يمكن تحقيقه فقط إذا وجدت حدود لمدى استطاعة أي مجموعة السعي لفرض طريقتها الخاصة.

حول جامعات دينية وعلمانية مركبة:

ماذا عن الجامعات التي تتضمن الدراما الدينية والدنيوية؟ إنها تمثل إشكالية كبيرة، كما أنها تشتمل على إمكانيات عظيمة.

لماذا تشكل هذه الجامعات إشكالية كبيرة؟ لقد أصبحت الجامعات هي واجهة التفكير والنشاط العلماني، ولقد أصبح ذلك مفهومًا، وفي أغلب الأحيان محببًا، أصبحت العديد من الجامعات معاقل للسيطرة الدينية، وغالبًا يمارس فيها مقاومة قوية وقسرية للمواقف الدينية وغير دينية الأخرى، هناك أمثلة على هذه الجامعات ذات السيطرة الدينية في بعض البلدان في الوقت الحاضر، فالحركات التي تهدف لتحويل الجامعات إلى علمانية باسم الحرية الأكاديمية غالبًا ما تجد تبريراً كاملاً لها. تمثلت المشكلة في الرغبة في تحويل الحرية الأكاديمية إلى سيطرة علمانية، وفي بعض الأحيان صاحبتها مشكلة تجاهلٍ الدين والتحيز ضده والعنف الموجه له. لقد وجدت عقلية علمانية تفترض أن الدين ككلٍ غيرُ حقيقي، وعلى وشك الاختفاء بسبب التقدم العلمي، وبعدما أصبح الناس أكثر تعلمًا. ولقد أصبحت هذه العقلية شائعة للغاية في الجامعات ويستمر البعض في الترويج لها من خلال العديد من فروع المعرفة(6).

لصياغة المسألة بوضوح نقول: ليس من النادر إيجاد أكاديميين ممن لم يقرؤوا في حياتهم عملاً أدبيًا معاصرًا جادًا كتبه شخص متدين في مستوى قدراتهم العقلية والتربوية والثقافية الرفيعة، واقتنعوا بأنه لا يوجد حالة فكرية مقنعة ليكون الإنسان متدينًا، لقد وجدوا أنه من المستحيل تصور أن أذكياء القرن الواحد والعشرين الذين هم على وعي بالعلوم الحديثة ومجالات المعرفة الأخرى يمكنهم بكل أمانة أن يكونوا متدينين، ويستحقوا كل احترام بسبب تمسكهم بموقف دفاعي عقلاني؛ ولكن هناك بالفعل ملايين من هؤلاء الأشخاص المتدينين. ويفسر التزامهم الديني بأكثر من طريقة؛ حيث إن العديد منهم عملوا بنجاح ودرسوا في الجامعات، وهناك وفرة لمثل هذه التفسيرات في الفلسفة والعلوم الإنسانية (خاصة علم النفس وعلم الاجتماع)، والعلوم الطبيعية (حيث إن علم الأحياء التطوري مفضل لهم). إن عدم وجود احترام للأمانة الفكرية بالعقيدة الدينية، وعدم وجود مشاركة مع مؤيديها الأكثر تطورًا فكريًا بجانب وجود عناصر أخرى مثل: الاختصاص

المحدود والاعتماد على الرأي العام الذي يتشكل غالبًا بواسطة ما يخرج من الجامعات، والتسليط الإعلامي على أقل أشكال التفكير والجذب للعقيدة الدينية، وذلك لخلق افتراض بأن الدين غير حقيقي بالمرة، وفي أسوأ الأحوال أنه سام وخطير للغاية. عند وجود دليل على أن أهمية انتشاره وعودته للظهور على الصعيد العام غالبًا ما تزداد ردود الفعل من التشكك والخوف والعدائية تجاهه، فاحتمالية عدم اختفائه يمكن أن تحث الجهود المبذولة في محاولة جعله يختفي؛ لأن ذلك ما يجب أن يحدث.

من نتائج ذلك أن الدين ينظر إليه كمادة تستحق الدراسة بالمرة (وهناك عدد كبير من الجامعات التي لا تشتمل حتى على قسم واحد مكرس لذلك) ولن يحدث ذلك إلا عند النظر إليه كظاهرة لابد من البحث فيها تاريخيا واجتماعيا ونفسيا وهكذا، وتعد مثل هذه الدراسة ضرورية ومناسبة؛ ولكن هذا الاشتغال بالدين لا يعد كاملاًإذا استبعد البحث كون الدين حقيقيا وعظيم الشأن، أو كونه وسيلة واقعية للحياة اليوم، أو أنه يتضمن إسهاما مهما لصنع فكر وثقافة وازدهار مجتمعاتنا. للأسف مثل هذه المشكلات التي انبعثت من خلال الديانات وما بين الديانات غالبًا ما يكون من المستحيل استكشافها أكاديميا في العديد من جامعاتنا؛ ولكن مليارات من الناس في عالمنا- ويتخللهم العديد من ذوي التعليم العالي- ممن يشاركون بصورة مباشرة في مجتمعاتهم وتقاليدهم الدينية، وهكذا فإنه تطابق بين العالم العلماني والديني المركب وبين العديد من الجامعات العلمانية حصرًا أو الدينية حصرًا.

ولكن هذا الموقف أيضًا به الإمكانيات الضخمة، إن عودة الدين للظهور على الصعيد العام وإدراك أن الدين في الحقيقة لطالما كان ودائما سيستمر في الأغلب في تواجده بقوة في حياة الملايين من الناس حتى ولو تم شطبه من السيناريوهات العلمانية المستقبلية سوف يتيح ذلك احتمالية إعطاء الدين حقه في الجامعات. كما كان هناك شيئ من خيبة الأمل فيما يتعلق بجوانب وجهات النظر العالمية العلمانية مثل الإيمان بالعقل والعلم والتقدم والاستقلال الإنساني والتحكم في الطبيعة. يدرك العديد من العلمانيين أنه من الحكمة امتلاك أماكن يمكن فيها طرح الأسئلة بواسطة الأديان وبينها، بالإضافة لطرح الأسئلة عنها، ويمكن لكل من المتدينين والعلمانيين متابعتها بكل صراحة، وهكذا فإن من الجيد التوصل لنقاش مهذب وعقلاني ومنظم حول مواضيع رئيسة مثل الحقيقة والممارسة والجمال، وهكذا فإن هناك احتمالية أن تتلاقى المجتمعات الدينية والعلمانية بواسطة الجامعات الدينية والعلمانية.

يوجد بالفعل جامعات يمكن وصفها بأنها دينية وعلمانية مركبة معًا، وعلى ما أظن قد تمثل جامعة كامبريدج التي تخرجت فيها دليلاً على ذلك، بالإضافة لعدد من الجامعات الأخرى في بريطانيا وفي قارة أوروبا وأمريكا الجنوبية وفي أماكن أخرى، أنا لا أدعو للتخلص من أي من الجامعات الدينية حيث إن عالم التعددية الذي نعيشه يحتاج إلى العديد من أنواع الجامعات؛ ولكني أرى بالفعل أن ما نحتاجه أكثر من أي شيء هي الجامعات التي تعكس المزيج المركب للعالم كما هو، جامعات يمكن فيها دراسة الأديان، والكشف عن المشكلات التي تتضمنها وتنبعث منها، ليس فقط بواسطة أفراد متدينين وعلمانيين؛

ولكن أيضا بواسطة أفراد قد لا يكونوا متأكدين أين هم واقفون؛ ولكنهم متأكدون بأن الأسئلة لابد أن تعالج بواسطتهم، ومن خلال جامعات القرن الواحد والعشرين.

والآن سوف أقوم بعرض برنامج من ست نقاط للجامعات، ويهدف هذا البرنامج إلى تأهيل الجامعات؛ لتكون أماكن يمكن للمجتمعات التعددية المشاركة فيها على إختلاف أبعادهم الدينية والعلمانية من خلال سبل تحترم كلا الجانبين.

برنامج من ست نقاط لتشكيل الجامعات في أوروبا الدينية والعلمانية:

1- مناقشة المشكلات:

هناك مناقشة مكثفة حول الدين في أوروبا ومناقشة متزايدة حول أنظمة الجامعة الأوروبية؛ لكنه من النادر ربط الموضوعين بعضهما ببعض فهناك علامات قلق في كلا المناقشتين كما يتضح من خلال مقالتين حديثتين.

(تدريس الدين في أنظمة المدارس الأوروبية: قضايا واتجاهات سياسية) بواسطة لوس بيبيان(7)، وتعد تلك واحدة من سلسلة من الدراسات التي ترعاها شبكة مبادرة المؤسسات الأوروبية حول الدين والديمقراطية في أوروبا(8)؛ وتتضمن أربعة كتب يمكنني أن أحكم على اثنين منهما كتابان رائعان أحدهما عن الدين والثقافة الصحية في الاتحاد الأوروبي(9) ، والثاني حول الصراعات على المساجد في أوروبا(10)؛ بينما الكتابان الآخران اللذان يتحدثان عن الدين والانحيازية(11)، وعن الدين في المدارس يثيران الكثير من المشاكل، وقد تضمنت دراسة بيبيان(12) الكثير من البحث والاستطلاع حول ما يحدث في أوروبا فيما يتعلق بالتعليم الديني؛ ولكنها مشوشة فيما يتعلق بأنها تبدو وكأنها تتبع بشكل مسَلمَّ به إطارًا علمانيا دون إدراك البدائل؛ مما يثير الانتقادات حولها، ويمكن للفرد أن يعدّها تفسيرًا للتعليم الديني في كل أوروبا من منظور أو عقلية علمانية. لا يوجد أي إقرار بالمشاكل المتعلقة بتعريفاتها السائدة (مثل تعريفها للدين على أنه قيم وتاريخ وعادات) أو تصنيفاتها (مثل الحيادية والموضوعية والحقائق الدينية والعلوم الدينية)، وافتراضاتها (تفصل السياسة عن الدين)، كما أنها لا تبدو وأنها قد أدركت الخيارات التي تكمن وراء التوجه الاعترافي مقابل التوجه الحيادي في التعليم الديني، في تصورها أن المدرسة مساحة ديمقراطية يسهل على الجميع الوصول إليها، كما أنها مقر لتبادل المعرفة الموضوعية التي تعتمد على التصورات العلمية، وليست الدينية، ويبدو أن ذلك يتضمن أن المساحة الديمقراطية لا تتضمن مكانا للمعتقدات الدينية، والأهم من ذلك أن المعرفة الموضوعية والعلمية للدين سوف تتناقض، وتكون أرقى عقليا وعلميا من الدين الذي ينبع على سبيل المثال من سنوات من الممارسة الذكية له، وترغب بيبيان في اتباع مساحة تعليمية حيادية دينيا يمكن للمدرسين والطلاب على حد سواء فيها حجب أي معتقدات خاصة تم تشكيلها من الناحية الدينية، أو أي ممارسات من أجل التعامل مع "الحقائق الدينية" التي قام بوصفها دخلاء يدعون الموضوعية. وكما يقول تشارلز تايلور: "إملاء المبادئ عن طريق سلطة أعلى تسمو افتراضا على النزاع فإن ذلك يؤدي إلى بعض

المخاطر من أنه بعض الناس غير مدرجين في العملية المستمرة لتحديد ماهية المجتمع وكيف يسير لإدراك أهدافه"(13) في مجال الجامعات، تدعو بيبيان إلى اتجاه علماني محض في الدراسات الدينية، وسوف أناقش لاحقا مدى كفاية هذا التوجه في صالح الدراسات الدينية التي يمكن أن ينشأ عنها بعض الأسئلة حول الحقائق والممارسات دون أن يتظاهر أي فرد بالحيادية تجاهها، كما أن النقاش حول الدين في المدارس سوف يستفيد من التوسع فيه وصولا للجامعات.

الوثيقة التالية تتعلق بالجامعات في أوروبا، وهي إجمالا نموذج مشجع ومبشر، في 15-16 يونيو 2010م التقى وفد من الخبراء من الجامعات الأوروبية في بروكسل وأصدروا بيانا رسميًا(14) يُدعى: "تقوية سلطة الجامعات الأوروبية"، وهذا البيان يتحدث عن أزمة فكرية ستصبح عقدة العالم الحالي، وكيف يمكن التأقلم معها، وأن هذه الأزمة سوف يتم نقلها بشكل غير كافٍ من خلال العملية التدريسية للجيل التالي(15)، كما أن هذه البيان يحوي الكثير مما يمكن قوله حول الاختلافات في الرسالة (أحد أهم الملامح التي ينتج عنها تشجيع مراكز التميز الدولي)، والاستقلالية، والحكم الذاتي، والحاجة إلى تمويل خاص والكثير من ذلك؛ ولكن ضمن ذكر التعليم العام والمستفيض؛ فإن تعزيز الإدراك الثقافي والمواطنة الديمقراطية والتعامل مع التغيرات التي تحدث في المجتمع فلا يوجد شيء يتعلق بالديانات. دائما ما يتم وصف أوروبا بالعلمانية بشكل كبير، كما يبدو أن الدين يصنف ضمن فئة الثقافة، إنه مجرد أحد أعراض الحقيقة بأنه لا يوجد أي جدل حول كيف أن الجامعات الأوروبية تتعلق بالديانات، وأنهه في الغالب لم يخطر ببال الباحثين المميزين أن ذلك يجب أن يصبح بندا في جدول أعمالهم.

هل سيكون من الكثير أن نتوقع أنه من الممكن أن يتغير ذلك؟ يقوم منتدى البوسنة الدولي حاليًا بتصعيد الأمر، وأتمنى أن يتخذ الآخرون خطوة نحو هذا الجدل.

2- الاعتماد على حكمة كثير من التقاليد:

من المعروف بشكل عام أن الجامعات تواجه مشاكل معقدة يتداخل معظمها، ولذلك تتطلب الكثير من التفكير، وإصدار أحكام تتعلق بكثير من المجالات، وعلى مدى فترة طويلة، وكما أفاق العلماء وبقية المجتمعات ببطء في القرن الماضي على أبعاد القضايا البيئية؛ لذلك فإن البيئة الفكرية بمجتمعنا تطرح الكثير من الأسئلة طويلة الأجل وذات النطاق الواسع. ونظرا لأن الجامعات لديها الكثير من المناهج، فهي تعد المؤسسات الوحيدة المهيأة للرد على هذه التساؤلات، ولذلك فهي ذاتها التي تحتاج لتولي هذه المسئولية جديا، وإذا لم تستطع الجامعات التأقلم بصورة جيدة، فسوف تتكون فيما بعد مشاكل خطيرة على حضارة تعتمد بصورة كبيرة على التعليم والمعرفة التي تقدمها. وفيما يلي سأوضح لكم سبعة من التساؤلات التي تواجهها الجامعات(16).

أولا: هل يمكن أن تكون هناك أشكال مناسبة للتداخل بين المناهج والتواصل: عبر المجالات في ظل تزايد التقسيم مع زيادة عدد المناهج والمناهج الفرعية؟ ثانيًا: هل يمكن

للتدريس والبحث أن يجتمعا معا في المؤسسة نفسها بحيث يستفيد الطرفان؟ ثالثا: إذا كان هناك أي شيء يمكن القيام به فما هو هذا الأمر الذي يمكن أن نحاول فعله في سبيل التشكيل التعليمي الكلي للطلاب؟ رابعًا: ما نوع الكليات المفضلة والمحبوبة بين الأكاديميين والطلاب؟ خامسًا: من يتحكم في الجامعة، وما هو نوع الأداة والسياسة التي تتحكم فيها؟ سادسًا: ما هي الإسهامات المناسبة في المجتمع سواء على المستوى المحلي أو العالمي التي نتجت عن الجامعة؟ سابعا: كيف يمكن تعريف الجامعات بحيث تزيد من إسهاماتها في كل من المصادر العامة والخاصة؟.

تلك هي الأسئلة التي لا تتطلب فقط المعلومات والخبرة؛ وإنما تتطلب الفطنة والحكم الصحيح. إن الحكمة الخاصة بأي تقليد خاص سواء أكانت علمانية دنيوية أو دينية سوف تمتد كثيرا لتجد إجابات عملية وكافية، إن المفكرين النصارى للعصور الوسطى الذين عملوا على تطوير هذه المؤسسة غير المعتادة كانوا يسعون بشكل عاطفي وراء الحكمة والمعرفة أيضا، كما تجاوز العديد منهم بجرأة شديدة الحدود التي وضعتها لهم تقاليدهم الخاصة حتى يستطيعوا الانخراط فيما يقوله الملحدون واليهود والمسلمون، وقد أصبح نطاق التحدي اليوم كبيرا للغاية، نحن في حاجة للاعتماد على الحكمة العميقة لتقاليدنا، وفي الوقت نفسه نتجرأ على الوصول بها لمستويات أبعد.

فيما يتعلق بالجامعات، يكمن قلقي الرئيس ليس في عدم إتاحة الفرصة لكثير من اليهود والمسلمين والمسيحيين والهندوس والملحدين وآخرين في الإسهام بتشكيل الجامعات خلال القرن القادم؛ يكمن خوفي في أنه حين تتاح لنا الفرصة سوف يكون لدينا نقص في الفهم والمعرفة والفطنة والحكمة المطلوبين فعليًا؛ لذلك فإن النقطة الثانية في برنامجي هي أننا أثناء خلق هذا الجدل سوف نسعى جميعا نحو الحكمة في هذه الأمور أينما توجد، يجب أن نتعمق أكثر في تقاليدنا وتقاليد الآخرين حيث؛ إننا نعمل معًا لتشكيل جامعات المستقبل. ماذا سيحدث على سبيل المثال إذا ما تعاونت مجموعة صغيرة من اليهود والمسلمين والمسيحيين في محاولة لتصور رؤية الجامعات فيما يتماشى مع حكمتهم الرئيسة ثم محاولة العمل مع المنتفعين الكثر الآخرين في إيجاد طريقة يمكن أن يساعد بها ذلك على الإجابة على هذه الأسئلة السبعة؟

3- تطوير أقسام للدراسات الدينية:

إذا ما كان من الممكن إيجاد نوع من الحكمة القائمة على الدين والمتعلقة بتشكيل الجامعات، فمن المهم أن يكون هناك أماكن حيث يمكن التفكر بشأن الفهم الأكاديمي لمختلف العادات الدينية وتفاعلاتها مع بعضها البعض، إن الأكاديميين المؤمنين المتخصصين في مجالات الفنون والعلوم الإنسانية والعلوم والتكنولوجيا يحتاجون للقيام ببعض المحاولات؛ ليكونوا على مستوى الذكاء نفسه في إيمانهم، كما هو مستوى ذكائهم في تدريسهم وأبحاثهم ومسئولياتهم تجاه الجامعة، وإذا كانوا بالفعل كذلك، فسوف يتبع ذلك المزيد من الحكمة التي تحتاجها جامعاتنا.

ولكن لا يكفي للباحثين عن الحكمة أن يتم توزيعهم على الجامعات؛ بل يحتاج الأمر منهم المزيد من التركيز في الأقسام المخصصة بالبحث حول التقاليد الدينية إن العديد من الجامعات ليس لديها مثل هذه الأقسام، كما أن الأمر يستحق التحدي فيما يتعلق بما إذا كانوا سيستطيعون إنجاز مسئولياتِهم نحو المجتمع إذا ما أغفلوا أو على الأقل فشلوا في التعامل بشكل متناسق مع هذا المعْلم البارز لمجتمعنا. أما بالنسبة لمن يقومون بذلك فعليًا، فهناك الكثير من التوجهات المختلفة؛ فأحد الاتجاهات يميل نحو الأقسام الاعترافية التي تعرف بتقاليد إيمانية خاصة، والآخر يميل نحو دراسة الأديان من منطلق سلسلة من المناهج ورفض أي تعريف ذاتي فيما يتعلق بالإيمان، أما بخصوص مناقشة الجامعات الدينية والجامعات العلمانية، فأنا لا أرغب في إثارة الجدل بشأن أي أقسام دراسات دينية اعترافية (والتي تسمى بهذا الاسم عادة إذا كانت مسيحية) أو أي دراسات دينية علمانية؛ ولكنني أرغب في جعل هذه القضية من نوع ثالث، بالإضافة إلى تلك التي تدمج الدراسات الدينية واللاهوت.

وقد عملت على تطوير المنطق الرئيس للاهوت والدراسات الدينية في مكان آخر بشكل أكثر توسعًا(17)، أما هنا فمن الصعب تلخيص ما تم اقتراحه مسبقا، في عالم ديني وعلماني معقد سنجد أنه من الحكمة بالنسبة للجامعات أن يتم تطوير أقسام يمكنها أن تتأقلم مع هذا التعقيد، ومع الأسئلة التي تم إثارتها من جانب الديانات وبين الديانات وحول الديانات أيضا. بمعنى آخر، إذا ما كان سينبغي عليها إنجاز المسئوليات الأكاديمية نحو الجامعة ومناهجها، ونحو التقاليد الدينية ونحو المجتمع ككل، إذاً فهم في حاجة لأن يكونوا قادرين على التصارع مع الأسئلة التي تدور حول الحقيقة والممارسة، وحول الوصف والتساؤلات التجريبية والتحليل والمعنى، وأن تمكن من قيام الحوارات المنهجية بين الناس ذوي التصورات المختلفة. مثل هذه الحوارات تعد أمرا مهما في الخطاب الذكي بشأن الأمور الدينية بين هؤلاء الأشخاص المؤمنين وغير المؤمنين أيضًا، وبالتالي تكون النقطة الثالثة في جدلي هي أن مجتمعاتنا في حاجة ماسة إلى أماكن يمكن فيها التفكير والتحدث بشأن الإيمان الذكي وفهمه والجدل بشأنه واختباره، وأن نموذج أقسام اللاهوت والدراسات الدينية هو أفضل طريقة لأي جامعة تقوم بتطوير مثل هذه الأماكن.

4- زيادة المعرفة والثقافة الدينية داخل الجامعات:

تناقش الجماعات القضايا الدينية في عدة مجالات بجانب التدريس والتعليم الأكاديمي والبحث، على سبيل المثال، أثناء مرحلة قبول الطلاب ودعم الطلاب والعلاقات داخل الحرم الجامعي، والطعام وتوريده ولإقامة والصحة، والمنهج التربوي وجدول المواعيد، والاستشارات والمجتمعات الطلابية وموضوعات المساواة والتنوع والتفرقة والعبادات والإيمان وأماكن العبادة، كما أن لديها توجهات مختلفة جدًا في هذه المجالات، وأحد طرق وصف هذه التوجهات يتعلق بالثقافة الدينية.

في أحد المشروعات الحماسية التي تُدعى قيادة الثقافة الدينية في التعليم العالي (التي

يدعمها مجلس تمويل التعليم العالي بإنجلترا، ويرأسها دكتور آدم دنهام في هيئة الأديان والمجتمع المدني بجولد سميث، جامعة لندن) اجتمع عشرة وكلاء(18) مستشارين مع عدد من القادة والمديرين الآخرين؛ حتى يصلوا إلى معنى محدد للثقافة الدينية بالنسبة للجامعات، وحول فكرة الثقافة الدينية يقول المشروع "نقترح أن الثقافة الدينية تكمن في أن يكون لدينا المعرفة والمهارات لإدراك الإيمان والدين كمجال شرعي وهام للرأي العام، بالإضافة إلى امتلاك درجة من المعرفة العامة حول بعض التقاليد الدينية على الأقل، والإدراك والقدرة على اكتشاف الآخرين، والغرض من هذا المشروع الابتعاد عن الأشكال النمطية، واحترام الآخرين والتعلم منهم، وبناء علاقات طيبة عبر الاختلافات. في هذا الشأن، يعدّ هذا الأمر مسعىً حضاريا وليس دينيًا أو لاهوتيا، كما أنه يسعى لدعم مجتمع قوي ومتماسك ومتعدد الأديان، في الوقت نفسه يشمل أشخاصا من جميع الفئات الإيمانية، ولا يتضمن من يتواجد في بيئة كثيرة التشكك والقلق بشأن الدين والإيمان، ربما يمكننا تلخيص الهدف المجمل بأنه السعي لإضافة التوجهات الذكية والمتعمقة والمتفكر فيها إلى الإيمان الديني والتي تقابل ردود الأفعال الضارة التي تعتمد على الخوف والنمطية".

إن الثقافة الدينية من شأنها التأثير على روح الجامعة بشكل كلي، كما يحدد المشروع خمسة نماذج مستفيضة وموسعة لشكل القيادة الذي يمكن إيجادها: الأول من ناحية هو:

· قيادة الجامعة "العلمانية" أو الحيادية؛ حيث تقوم الجامعة باعتراف متدنٍّ بالدين إلى الحد الذي يتوجب عليها فيه أن تحتفظ بالقانون في مثل هذه الأمور على أنه مساواة وعدم تفرقة عنصرية.

أما الخامس من الناحية الأخرى فهو:

· **قيادة جامعة "تطوير الحياة":**

هذه الجامعة تأخذ في اعتبارها الخبرة الواسعة لطلابها وهيئتها التدريسية، ورؤية تعلمهم وعملهم بشكل يتعلق بنموهم وتطورهم البشري ككل... أما الإيمان أو الدين فلا يتم النظر إليه بصورة مبسطة فيما يتعلق بـ"المتطلبات" أو "الاحتياجات" التي يتمتع بها بعض الطلبة؛ بينما لا تتواجد لدى طلبة آخرين. عوضا عن ذلك، فإن وجهات نظر جميع الناس في العالم سواء أكانوا دينيين أو علمانيين يتم اعتبارها مظاهر هامة للهوية والثقافة على أنها أبعاد مثمرة في التعليم ونمو الشخصية، كما أنها تؤكد على الفوائد الشخصية والفكرية للحصول على تعليم جامعي بالنسبة إلى أناس من عادات مختلفة بالإضافة إلى الفوائد الاقتصادية والمادية... كما أن العلاقات الطيبة داخل الحرم الجامعي يضمنها المحاولة الفعالة لخلق بيئة يكون فيها الإيمان أو الدين كما لو كان في موقعه المناسب داخل الجامعة، مع فعاليات وأشكال دينية للتعبير يتمتع بها الآخرون أيضا، وأسئلة موجهة دينيا وتراث يتواجد في الأجندة الأكاديمية للمناهج والتدريس والتعليم، كما أن هناك اتصالا بالمجتمعات المحيطة بما فيها المجتمعات الإيمانية التي تعد من الضرورات التي تثري

الخبرة الجامعية داخل وخارج جدران الحرم الجامعي.

وما بين هذه النماذج القصوى والدنيا، يوجد ثلاثة نماذج أخرى:

- القيادة من أجل "الممارسات الجيدة" فيما يتعلق بالدين.
- قيادة من أجل جامعة "مستجيبة دينيا".
- القيادة من أجل الانضمام للدين بصورة مستفيضة كنوع من "العدالة الاجتماعية".

نقطتي الجدلية الرابعة هي أن معظم الجامعات الأوروبية تعدّ أقرب للنموذج الأول؛ ولكن ازدهار مجتمعاتنا الدينية والعلمانية سيزداد دعما وتعزيزا إذا ما توجهت نحو النموذج الخامس.

5- زيادة الثقافة والوعي الديني في المجتمعات بمساعدة الجامعات:

النقطة الخامسة هي ببساطة امتداد للرابعة: إذا كان الوعي الديني أمرًا مستحبًا بالنسبة للجامعات، فسوف يكون مستحبًا أيضًا في المجتمعات ككل. مع أن الجهل والمعلومات الخاطئة والعنصرية والانحياز والعدائية بصورة كبيرة فيما يتعلق بالديانات منتشرة في مجتمعاتنا؛ ولكن هناك مستقبل أفضل بوجود التعليم الشيق، والخبرات الجذابة، والعلاقات المجتمعية الأفضل، والثراء الروحاني والثقافي، والعلاقات طويلة الأجل عبر الاختلافات في الديانات. يمكن للتعليم العام الجيد أن يساعد في عكس السلبية وتعزيز الإيجابية، ويجب أن تتحمل الجامعات بعض مسئولية ذلك.

ومنذ أن أصبحت مدير برنامج حوار الأديان بجامعة كامبريدج، فبالنسبة لي أحد أهم التطورات الجديرة بالذكر كان التعاون مع مؤسسة كوإكزست بلندن، والذي أصبحنا نرتبط من خلالها في جامعة كامبريدج بعدة أنشطة تربط دراساتنا الأكاديمية للديانات اليهودية والمسيحية والإسلام (بما في ذلك علاقة بعضهم ببعض وبالعالم ككل) مع الكثير من التحديات التي نواجهها في تحسين الفهم العام والاشتراك في حوار بين الأديان وخلق شراكة طويلة الأجل عبر اختلاف الأديان، وتشكيل الطلاب الذين (غالبا كقادة تعليميين أو دينيين) سيستمرون في هذا العمل حول العالم، ونتمنى أن يتوج ذلك المؤسسة بالتعاون مع مؤسسات أخرى بأن يكون مركز حوار الأديان بلندن، حيث يمكن أن تقام فيها معارض ومحاضر تدريسية وحوارات عالية الجودة(19)، وليست جامعة كامبريدج وحيدة في مسعاها لتحمل مسئوليات أكبر نحو المجتمع بشكل أكثر جدية، وفي الواقع، ومع نظرتي حول أوروبا بأكملها، أجد أنه من المشجع أن أرى تلك الوسائل التي تتداخل من خلالها الجامعات، وتتكامل معا؛ لتصبح متكاملة في أساليبها الاستراتيجية للمهام الخاصة بخدمة الصالح العام.

6- الاعتماد على مصادر التمويل الدينية والعلمانية:

آخر نقاط هذا البرنامج الجدلية هو الجزء المتعلق بالتمويل، وقد أوضح البيان

الرسمي"تقوية سلطة الجامعات الأوروبية" الذي ذكرناه سابقا نقاطا قوية تتعلق بالحاجة لاستقطاب المزيد من تمويل القطاع الخاص في الجامعات الأوروبية، ومقارنة بغيرها من الدول يوجد العديد من جامعات الدرجة الأولى في بريطانيا أكثر منها في أي بلد آخر، كما أنه ليس من سبيل الصدفة أن تكون بريطانيا تتمتع بأعلى مستوى من دعم لجامعاتها من خارج الحكومة، ويبدو أن أفضل الطرق لزيادة الاستقلالية، وتقوية القدرة على التحديث والتجربة والحصول على استقرار طويل الأجل تقدمه المنح (حتى مع السماح بعدم الاستقرار في سوق البورصة) هو اقتصاد مختلط اختلاطا ذكيًا بين للدولة والممولين الآخرين.

كما من المهم أيضا أنه ربما تكون أقوى الدوافع للأعمال الخيرية الخاصة في العالم هي دوافع دينية، فإذا أصبح الدين والجامعة أمورا مهمه في القرن الحادي والعشرين بقدر ما أرجّح، إذاً فيجب أن يجتمع قادتهما معًا لتشجيع المتبرعين الدينيين والعلمانيين في مساعدتهم على إدراك ماهية البرنامج الذي أوضحته الآن، وأنا أثق أنه إذا أصبح هذا الأمر شائعا بشكل كبير، فسوف يكون هناك العديد من المفاجآت الرائعة، حين يحلم محبي الخير والجامعات معا بوسائل يمكنهم من خلالها التعاون معا في خدمة ازدهار مجتمعاتنا الدينية والعلمانية.

صُلب الموضوع: الزمالة، الصداقة و"من أجل الموسيقى".

أود أن أنتهي بنقطة شخصية؛ لقد أصبح لي في الجامعة- كطالب ومدرس- أكثر من أربعين عاما، وقد حصلت على الفرصة المتميزة للدراسة بأيرلندا وإنجلترا وأمريكا وألمانيا، وأن أنضم إلى العديد من الجامعات في أماكن أخرى بأوروبا وأمريكا الشمالية وأفريقيا والشرق الأوسط والهند والصين، وكلما رجعت بذاكرتي إلى هذه السنوات، أعلم بلا شك أن أهم شيء كان التواصل والعلاقات المباشرة وجها لوجه.

وأركز بشكل خاص على أساتذتي وطلابي وزملائي الأكاديميين؛ حيث إن تلك العلاقات التي ربطتنا معا كونت شكل الزمالة، والتي تعد أهم عنصر في جودة الحياة الأكاديمية؛ فهذه الزمالة تَعْبر حدود الإيمان والديانات والمناهج والأجيال والأمم واللغات، كما أنني أفكر أيضا في الكثير من العلاقات المهمة الضرورية مع محبي الأعمال الخيرية والرعاة (مرة أخرى نعبر الحدود حيث نعبر الجغرافيا من عمان إلى أمريكا)، مع المديرين وغيرهم من موظفي الجامعة ومع مجموعة من الوكلاء بجامعة كامبريدج، والذين أدرك كل منهم أهمية أن تأخذ الجامعة بجدية أمر اللاهوت والدراسات الدينية، ليس فقط لكونه مجالاً أكاديميًا؛ ولكن أيضا لمسئوليتها طويلة الأجل نحو المجتمعات الدينية والمجتمع ككل. ومنذ عشرة أيام استضاف دوق إدنبرة -رئيس جامعة كامبريدج – حفل وداع رائع لأعرق الوكلاء الذين عرفْتهم في حياتي، وهو الأستاذ دام أليسون ريتشارد والذي عملتْ طاقته ورؤيته على خلق تغيير رائع وواضح في برنامج كامبريدج لحوار الأديان، وقد أصبحت أقدَّر بشدة القيادة والإبداع الاستراتيجي والمؤسسي اللذين يعدان من الأمور

المهمة لإيجاد زمالة إبداعية داخل وبين الجامعات.

****

الحواشي:

*) أستاذ الكرسي الملكي للإلاهيات بجامعة كمبردج.

1) راجع والتر راج: 'Themes' in Universities in the Middle Ages تحرير آيتش دي ريدر سيمونز، الجزء الأول من "تاريخ جامعات أوربا" لمحرر العام والتر راج (كامبريدج 1992م-).

2) انظر: كتاب إفليب جيركنز (قارة الله)..

3) للمزيد حول ما يلي راجع الفصل الثالث في كتابي القادم من سلسة ويلي بلاكويل مانيفيستو مستقبل اللاهوت المسيحي وهو واحد من مجموعة تتكون من ثلاثة أجزاء الجزءان الآخران هما "مستقبل اللاهوت اليهودي لستيفن كيبنز" و"مستقبل عقيدة الإسلام لعارف على ناید".

4) هناك عدة مواقف سياسية تبع من تقاليد مختلفة تقترب من الموقف الذي أحاول أن أصفه هنا، فمن وجهة النظر العلمانية هناك اقتراح جيفري ستوت الذي يعد واحدًا من أكثر الاقتراحات إقناعًا في كتاب الديمقراطية والتقاليد (دار نشرجامعة برينستون نيوجيرسي 2004م) ومن بين المفكرين المسيحيين راجع خاصة لوم بريثرتون" المسيحية والسياسة الحديثة: شروط وإمكانات الذكاء الديني (ويلي بلاكويل أكسفورد 2010م).

5) قارن فورد "تشكيل اللاهوت" سبق ذكره في الصفحات، 129، 134.

6) لمناقشة مفيدة حول المعاني المختلفة للعلمانية والطريق الذي سلكته أوروبا الغربية عبر 500 عام حتى وصلت لوضعها الحالي انظر: تشارلز تايلور "العصر العلماني" (دار نشر جامعة هارفارد مدينة كامبريدج بولاية ماسيتشوستس الأمريكية ولندن، 2007م).

7) دار نشر أليانس، لندن، 2009م.

8) أنا شاكر جدًا لإميليو روي فايلررئيس مؤسسة جلبينكيان إحدى مؤسسات شبكة المؤسسات الأوربية لتعريفي بهذه السلسلة.

9) الدين والرعاية الصحية في الاتحاد الأوربي، مسائل واتجاهات سياسية لديميترينا بتروفا وجارلاث كليفورد (دار نشر أليانس، لندن 2009م.

10) الصراع حول المساجد في أوروبا، مسائل واتجاهات سياسية لستيفانو آلييف، (دار نشر أليانس، لندن 2009م).

11) الدين والانحيازية في أوروبا، اكتاشفات تجريبية جديدة لبيت كوبر وأندري زيك، (دار نشر أليانس، لندن، 2009م).

12) أنا شاكر لجوديث جاردوم المدرسة الخبيرة بشئون تعليم الدين لمشاركتها نتائج هذه الدراسة معي.

13) تشارلز تايلور عصر علماني سبق ذكره، ص13.

14) أنا شاكر لأحد الموقعين إدورادو جريلو وزير التعليم البرتغالي السابق لتعرفي بهذا البيان وشرحه الخلفية التي يقوم عليها.

15) انظر: www.merit.unu/archive.

16) الإشارة التالية للفصل السابع صفحة 134 في كتاب ديفيد إف فورد "تشكيل اللاهوت. التداخلات في عالم ديني علماني" (بلاكويل أكسفورد 2007م). للمزيد انظر: كتاب ديفيد إف فورد الحكمة المسيحية: الاتجاه إلى الله والتعلم بحب (دار نشر جامعة كامبريدج، 2007م، الفصل التاسع.

17) مثلا: تشكيل اللاهوت سبق ذكره الفصول 1، 2, 7 الحكمة المسيحية سبق ذكره الفصل 9 ; اللاهوتية: مقدمة قصيرة جدا (مطبعة جامعة أكسفورد 1999م أكسفورد) الفصل 2; الكتاب المرتقب: مستقبل اللاهوت المسيحي (ويلي بلاكويل أكسفورد 2010م) الفصل 10 دراسات لاهوتية ودينية جديدة: التشكيل والتدريس والتمويل.

18) انظر: religiousliteracyhe.org

19) انظر: .www.interfaith.cam.ac.uk